أفونسو كروش

هيَّا نشترِ شاعرًا

ترجمة: عبد الجليل العربي



رواية

مسكيلياني

أفونسو كروش

هيّا نشترِ شاعرًا

رواية

ترجمها عن البرتغاليّة
عبد الجليل العربي

مسكيلياني للنشر

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

هنا نشر شاعرا

المؤلّف: أفونسو كروش
عنوان الكتاب: هيّا نشتر شاعرا
ترجمة: عبد الجليل العربي
تدقيق: شوقي العنيزي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 6-83-833-9938-978

الطبعة العربيّة الأولى: 2017

محتوى الكتاب

ثلاثون غراما من السبانخ

أكلتُ ثلاثين غراما من السبانخ هذا اليوم. سعر الكيلو باثنين من اليوروهات وثلاثين سنتا، وحسابيا نحتاج يوميا إلى ثلاثين سنتًا لكي نحصل على الفياتمين «ك»، حسب ما تذكر إحدى الدراسات. استهلك أبي عشرين غراما من القوة عند باب المطبخ، وقبل أن يترك على وجوهنا مليغراما أو ميلغرامين من اللعاب، أو من القبلات إذا أردتم أن نستعمل عبارة شاعرية، قال بصوت عال: نموّ وازدهار.

فأجبتُه بالأسلوب نفسِه.

يقولون إنّه لمن المفيد التعامل بمودة مع الآخرين، وربط صلة من الألفة بين الأشخاص لتحقيق نوع من الربح، وإن كان ربحا عديم القيمة لأنه ليس ماديا، ولا يمكن تحويله إلى أرقام أو استغلاله في الضرائب، ولا هو أيضا مصدر دخل، ولكن هناك من يعتقد - وهي مسألة إيمان - أنه يمكن تحقيق مكاسب من وراء ذلك.

قال أبي إنّ ذلك السلوك هو مجرّد أوهام، أشياء لا وجود لها، مادّة لامادية، ولكن هناك دراسات تؤكد إمكانية وجود منافع في ادخار بعض الملّيلترات من اللعاب في تفاحة خدّ شخص آخر رغم ما يثيره ذلك فينا من غرابة ودهشة.

تفاحة الخدّ عبارة غريبة وغير مفهومة، في حين تمّ التأكّد بصفة مطلقة من عدم وجود تفاحات على الخدّ وإنّما الثابت حقّا هو وجودها

في المراكز التجارية الكبرى، أو على الأقل هناك يمكن الحصول عليها، والإفادة منها في الحفاظ على الصحة وتوفير مصدر أساسيّ للتغذية.

سخيف بدرجة خيالية

أخي سخيف بدرجة فظيعة. يلبس حذاءً قياس أربعة وأربعين، ولديه فقاعات يتراوح عددها بين الثلاثين والأربعين على وجنة كل خدّ (كلمة أكثر منطقًا من تفّاحة الخدّ). هذا دون أن نأخذ في الحسبان الجبين والذقن والأنف. يضع نظارات، ويكاد الحاجبان يختفيان بسبب قلّة الشَّعر وعندما يتكلّم يقول أشياء غريبة من قبيل «عَجّلي» أو «لا تكسري محفظتي» (يعني أنّني أصيبه بالملل) أو «رفّعي لي في نسبة الضرائب» (يقولها كثيرا عندما لا يفهم ما أقول له ـ حصل ذلك مرّات لا تحصى ـ أوعندما يكون مغرما بفتاة). يعشق بسهولة ويدخل بسبب ذلك في حالة إفلاس عاطفيّ. يتّفق أكثر من تسعين في المائة من الزملاء، وأربع وسبعين في المائة من العائلة في النتيجة نفسها: إنّه أبله.

حيّيتُه عند وصولي إلى البيت بأسلوب اللباقة المعهود: نموّ وازدهار. أجاب بحركة فاحشة رافعا وسطى يده اليمنى مستثمرا لسانه في الخارج عند فتح فمه. كان يلبس تي شيرت برعاية محطّة بنزين.

جلس في المطبخ يأكل بسكويتا من الزنجبيل، سبع قطع، مستعملا إشارات وكلمات للتعبير عن الحرارة العاطفية التي تربكه.

أنا عاشق، قال.

كم؟، سألتُ.

بنسبة سبعين في المائة.

واووو!

المسألة جديّة هذه المرّة.

سبعون في المائة؟

ربما أكثر، قد تكون اثنين وسبعين أو حتّى ثلاثةً وسبعين. لم أقم بدراسة الحالة حتى الآن.

مع X89234 بلغتَ أيضا هذه النسبة.

أجل، ولكنّني كنت أمرّ وقتها بفترة هشاشة داخلية كبيرة.

أكنت جائعا وقتها؟

لا تكسري محفظتي!

حرّكتُ كتفيَّ:

هل أنت متأكّد من أنّك جادّ هذه المرّة؟

كما أنّ اثنين زائد اثنين يساوي أربعة.

ثلاثة وسبعون في المائة، قُلتَ؟

نعم. ليس أقلّ من سبعين في المائة إطلاقا.

يبدو لي عشقا قويّا. وهي؟

عندما طلبتْ منّي اليوم أن أرافقها بدا لي أنّها جاهزة فعلا للارتباط بي، ولكن لمّا اقتربتُ منها وقد بدأت تصرخ، فهمتُ أنّها قد تكون غير متعلّقة بي بأكثر من ثلاثين أو ستّة وثلاثين في المائة.

ولكن ذلك يمكن أن ينمو؟

بكلّ تأكيد.

كم القياس؟

شعرتُ بغرابة شديدة بسبب مساندتهم لعريضتي ـ العريضة التي سأذكرها لاحقا ــ دون اللجوء إلى أيّ تحقيق مكتوب. لا أستطيع أن أعبّر بأرقام دقيقة لأصف لكم شعوري بهذا القرار. في مساء ذلك اليوم، ساعة العشاء تحديدا قمت وصرّحتُ:

أودّ أن يكون لي شاعر. هل يمكن أن نشتري واحدًا؟

أمّي لم تقل شيئا، فقد انشغلتْ بجمع الأطباق؛ أربعة صحون شوربة، أربع ملاعق شوربة وأعلمتْ الحضور أنّ تقديم اللحم سيكون خلال ثلاثين ثانية. انتهى أبي من مضغ قليل من الخبز، حوالي ثلاثة عشر غراما. حرك فكّيه خمس مرّات ثم أجاب:

ولماذا لا يكون رسّاما؟

قالت أمي:

هذا مستحيل، إنّهم يقومون بالكثير من الأوساخ، فالسيدة 5638،2 لديها واحد منهم ويلزمها ما بين ثلاث ساعات إلى أربع لتنظيف الوسخ الذي يخلّفه من جراء استعماله للألوان في تلك الأشياء البيضاء.

لوحة زيتية.

هو ذاك.

جيّد، قال أبي، لنشترِ شاعرا. ولكن ما حجمه؟

اختيار شاعر

ذهبت أنا وأبي في يوم الاختيار إلى محلّ. أبي ليس طويلا وأنا لست أحسن حالاً منه، ولهذا كانوا يسمّونني في المدرسة الأجر الأدنى، وهو شيء كان موجودا من قبل، ولكنّه نفدَ للأسف، لأنه كان، كما يقولون، عقبةً أمام تحقيق التنافس.

كان المحلّ يعجّ بشعراء من كلّ الأصناف؛ قصار، طوال، شقر، بنظارات (وهم الأغلى)، علما أنّ الجزء الأكبر منهم، اثنين وسبعين في المائة، كانوا صُلعًا وثمانية وسبعين في المائة كانوا مُلتحين.

أعجبني واحدٌ كان أخنف وأحدب قليلا ولكن له انحناءة ممدودة. يرتدي سترة مزرعة، خمسة وسبعون في المائة منها من القماش، وباقي الخمسة والعشرين في المائة من النيلون، وسروالا بنيّا، بانتون سبعمائة واثنين وثلاثين، وحذاءً جلديّا مُهترئا، ويمسك بكتاب تحت ذراعه. ليس لملابسه رعاية من أيّة ماركة.

صافح أبي البائعَ باللباقة المعهودة في هذه المناسبات. هناك دائما جدية وقدسية كبيرتان في لحظة بدء تجارة ما:

ماهي الأرقام المناسبة له.

نموّ وازدهار، أجاب البائع.

أشار أبي إلى الشاعر الأخنف، الذي لا توجد أسماء ماركات راعية على ملابسه، وسأله إن كانت تلك النسخة مُخرِّبة. وهي الخاصية

الأكثر شيوعا بين الشعراء وتضاهي العنف لدى الكلاب.

أجاب صاحب المحلّ:

أقلّ من اثنين في المائة. من الضروري دائما أن يكون لديهم قليلٌ من التخريب وإلاّ فإنّ القيمة الشعرية لديهم تنزل كثيرا ولا تحقّق أرباحا، لا أحد يشتريهم، فينتهي بهم الأمر إلى راقصين أو هامسترز.

وماذا يأكل؟

أيّ شيء. ليسوا متطلّبين كثيرا. في أغلب الأحيان، وبعد مرورهم بثلاث حالات خاصّة بهم أو أربع حالات في الأسبوع، يصلون إلى درجة نسيان الأكل تماما. بعضهم يغادر الطعام عند المنتصف ويهيم من دون وجهة. يحدث لهم ذلك كثيرا عند غروب الشمس أو ظهور القمر أو الضباب، وهذا سلوك معهود وتقليدي لديهم. لا تستغربوا إن رأيتموهم واقفين لمدة طويلة وكأنّهم يقومون بحسابات مّا. لا، ليسوا كذلك، فهُم أبسط من أن يقدروا على عملية حسابية بسيطة. تلك الوقفات هي بالضبط اللحظات التي يبدؤون فيها بخلق القصائد في أذهانهم. إنّها عملية باهرة. لن تندموا إن اشتريتم شاعرا، هذا علاوة على أنّهم أكثر نظافة من الرسّامين.

سمعتُ بذلك.

فقلتُ متدخّلاً بينهما:

هل هناك شيء آخر علينا معرفته بخصوص صيانة واحدة من هذه النسخ؟

لترفيهه، اشتر له دفترا بأوراق بيضاء وأقلام. يمكن أيضا أن تشتري له كتبا. لدينا من كلّ الماركات.

التوقّف عند الفراشات

لدى أبي قليلٌ من الشَّعر إلى درجة تُتيحُ عَدّ شعراته أو على الأقلّ تقديرها. هناك مساحة في أعلى رأسه تسمح بحساب سريع لأنّها، ببساطة، خاليةٌ من الشَّعر. يمسك أبي ببعض العشرات منها، تلك التي تميل نحو الأذن اليسرى ويجبرها على تغيير هجرتها نحو الجهة اليمنى. وعندما كان يغضب، ويحدث ذلك بين مرّة وأربع مرات في اليوم، فإن تلك الشعرات تخرج من مكانها وتبقى معلّقة في جانب الرأس الأيسر، منبتها الأصليّ، وتصل حتى كتفه. يحاول أبي تصحيح تلك الحركة اللاإرادية للشعر لكن ذلك لم يفلح أبدا مقارنة بما يحدث عند خروجه من الحمّام حيث يمشطها أمام المرآة. قطعنا ثلاثمائة واثنتين وأربعين خطوة من المحلّ حتى البيت. أنا وأبي والشاعر.

كان شعورا غريبا. عندما كنا نمشي مدّ لي الشاعر يده.

وكان كلّما يرى فراشات يظلّ ينظر إليها. حدث ذلك مرّتين في الطريق.

ترتيب السرير

أَمَرَ أبي أمّي، في البيت، بترتيب سرير الشاعر.

أين؟ سألتْ هي.

تحت الدرج، قال أبي، هناك ثلاثة أمتار مربّعة. اشترينا شاعرا صغيرا، وهناك يمكن أن نضع له كنبة وطاولة صغيرة لممارسة نشاطاته اليومية. نزل أخي الدرجات، وهي برعاية إحدى شركات الاتصالات. توقّف. اتّكأ على الدرابزون ونظر إلى الشاعر بابتسامة ساخرة. حرّك رأسه خمس مرات على الجانبين. كان يريد أن يقول إنّني متقلّبة، ولا أهتمّ إلا بالأشياء عديمة الفائدة وقليلة الأهمية فيما يخصّ النموّ الاقتصادي، أو لها قيمة ضئيلة في السوق.

كان الشاعر ينظر إلى كلّ الاتجاهات. لا بدّ أن يكون سعيدا فقد صار لديه ملجأ الآن .

أجابت أمي بـ«نعم»، بانحناءة بسيطة لرأسها، ثمّ صعدت ثلاثا وثلاثين درجة حتى الطابق الأول حيث تقع الغرف.

عادت بشرشف وبطانية.

وضعتهما على أريكة الصالون. فتحت الكنبة ووضعتها تحت الدرج بعد أن نظّفت مترين ونصف متر مُربَّع (بالغ أبي كثيرا عندما قال إنّها ثلاثة أمتار).

رتبتُ السرير.

وضعتُ طاولة صغيرة، تلك التي كانت مُسنَدة إلى الأريكة وكان يستعملها أبي أساسا ليضع عليها الويسكي ثم ينساه هناك لمدّة بين نصف ساعة و خمس وأربعين دقيقة (أو أقلّ) ليجلس بعدها ويبدأ الشرب. كانت طاولة زجاجية مدورة. قطرها سبعة وثلاثون سنتيمترا. أمّا الشاعر فيكتفي في وصفها بـ«الجميلة».

ماذا سيفعل يا ترى؟

اقترب الشاعر من الأريكة ومرّر يده على نسيجها.

إنّها أريكة، قلتُ، ولكنّه لم ينظر إليّ. توقّعتُ ذلك، فالدراسات أثبتت أنّ الشعراء يقيمون علاقة بسيطة مع الواقع ومع من يحيط بهم، ليس لأنّهم أغبياء، ولكن تلك ميزتهم، مثل ميزة أن تكون قصيرا، أقلّ من متر وأربعين، أو لديك بقع سوداء على جسمك مثل صور البقر الحلوب التي تظهر على علب الشوكولاتة المستوردة من سويسرا أو بلجيكا.

وضعتْ أمي الشراشف، وهي برعاية شركة لتصدير الخضار والفواكه. دارت حوالي أربعين درجة أو خمسين، انحنت قليلا، ضربتْ السرير ثلاث مرات بيدها اليمنى وهي تبتسم للشاعر. وتلك الحركة تعني: تفضّل، استلق.

اقترب الشاعر ببطء.

لمعت عيناه.

لا أدري إن كانت دموعا.

جلس على السرير.

بقينا واقفين ننظر إليه.

نزع الشاعر حذاءه.

وضعت أمي يديها في المئزر.

استلقى الشاعر على ظهره وأدخل يديه في المعطف.

أخرج كتابا.

بحق مامون، ماذا سيفعل؟ سأل أخي مذعورا.

سيقرأ، أجبتُه.

عشاء

دعا الأبوان بعض الأصدقاء للعشاء.

جلسنا حول المائدة. كانت المائدة من خشب الماجنو، وفوقها ثريتان من القصدير، وشمعتان موقدتان، وغطاء برعاية عطور فراغنس تراي تراي أوريانتال2.1 Fragance très très oriental، وصحون وملاعق ومناديل لأحد عشر شخصا وللتفصيل: أمّي، وأبي، والشاعر، وأخي، وأنا وستّة ضيوف سأقدّمهم حسب توقيت وصولهم أو بالأحرى، الضيف 1، الضيف 2، الضيف 3، إلخ.. ترتيب عددي إذن. جنس الضيوف غير مهمّ، لذلك لن أشير إليه. يتكوّن العشاء من مقبّلات (مائة غرام من عجين الكبد، خمس عشرة قطعة خبز متنوّع بحوالي 30 غراما لكلّ قطعة) شوربة قرنبيط، حوالي مائتي مليلتر في كلّ صحن، أمّا الطبق الرئيس فهو سمك السالمون، قطع من مائة وخمسين غراما من السمك المربّى مع خضار سوتيه في زيت السوجا (حوالي عشرين مليلترا من الدهون غير المشبعة)، سِنّا ثوم، وفلفل وملح.

لديك شاعر؟ سأل الضيف 3، عندما كان يضع عجين الكبد على قطعة خبز بسنتميترين أو ثلاثة في الجزء الأعرض منها.

نعم، لديّ، أجاب أبي.

ويأكل معكم على المائدة؟

نعم. يأكل.

وماذا يفعل؟

قصائد.

واوو! رائع، قال الضيف 6. أنا أحبّ الشعر.

أليس صاخبا؟ سأل الضيف1.

لا. أبدا. قلتُ.

هذا مدهش، قال الضيف 6.

أنا يصيبني بالملل، قال الضيف 3. شريكي في الحياة الزوجية كان لديه، في الصغر، نحّات.

يقومون بالكثير من الأوساخ، قالت أمي.

الزوجان؟

النحّاتون.

نعم، ولكن يقولون إنّ ذلك يؤتي ثماره، فهم يدخلون في لحظات من الجمال، وهي وإن كانت غير مادية، فهناك من يقول إنّنا نحتاجها.

خرافات، قال الضيف 2.

على أيّة حال فهم يصقلون الحجارة جيّدا، قال الضيف 3.

من؟ سأل الضيف 5.

النحّاتون.

وهذا ما يفعلون؟

يمكن أن يقوموا بتلك الأشياء على مواد أخرى...أعتقدُ. ربّما على الخشب أو حتى على البلاستيك. ولكن زوجي كان يقوم بالنقش على الحجر.

للأسف هذا العمل لا يصلح لشيء. ألا يفيد صاحبه في أن تندبه

شركة استغلال المناجم؟ سأل الضيف 6.

لا يستطيعون العمل. هم مصابون بذلك المرض. أجاب أخي.

طلب أبي من الشاعر أن يقول قصيدة. قام. سُمع االسسسددد رررححححللل، ولكن ما قاله الشاعر فعلا كان: أوراق المقابر، أوراق الجسد تنمو فوقي، فوق الموت.

لم أفهم شيئا، قال الضيف 4.

دددففممممززلههل، قال الشاعر، أو بالأحرى، شيئا من قبيل: سبع ورود لاحقا (أعجبني هذا لأنه يحتوي على أرقام، وإن كان بقيمة نازلة، أقل من عشرة).

رائع، رائع، صفق الضيف 6.

اتغغغييييددررر، قال الشاعر وهو بالضبط: في أقصى النظر. أجدني أبحث عنّي فيك.

يا لها من سهرة رائعة مع الشعر، علّق الضيف 6.

ننررررززفققعععع، قال الشاعر أو بالأحرى: يحمل الجمل على ظهره الأفق وجبلا صغيرًا.

برافو! قال الضيوف بانسجام.

أخبار مرعبة

عاد أبي يحمل أخبارا مرعبة. الوضع الخارجي غير ملائم وبدأ المصنع يخسر أسهُما في السوق.

بقينا مرتعبين. ارتفع ضغط الدم، وزادت دقات القلب. كان أخي هو الوحيد الذي بدا على وجهه نوع من الهدوء.

علينا أن نبدأ إجراءات شدّ الحزام، صرّح أبي.

لم أفهم أبدا ما معنى هذا، قال أخي؟

ماذا؟

شدّ الحزام.

يعني علينا ألاّ نفرط في المشتريات، وعلينا أيضا أن نقتصد، وندّخر، ونخفّض المصاريف.

أعرف ذلك، ولكن ما دخل الحزام في الموضوع؟ أليست وظيفته شدّ السروال؟

إنّه لفظ أثريّ. ربما، في قديم الزمان، كان الحزام صالحا لمنع الاستهلاك.

ظلالنا تتنّفس معا ومعها يظل كل شيء محميا، قال الشاعر.

ماذا؟ سأل أبي، مستهلكا كيلوغرامين أو ثلاثة من الضغط على الطاولة.

إنّها أخبار سيّئة، أيّها الشاعر، قلتُ.

جلس بجانبي وابتسم، قائلا:

على الرغم من تعددّ الأوراق فالجذع واحد.

ربّما لم يفهم أنّ الأرقام ليست في صالحنا.

أعدتُ:

نحن في أزمة، أيها الشاعر.

فقام لأنّ ذبابة دخلت. وظلّ يمشي خلفها حاملا الدفتر والقلم.

في المدرسة

عندما قلت لزميلاتي في المدرسة إنّي حصلت على شاعر منذ فترة قريبة، سرى نوع من الحسد لديهنّ على ملكيتي الجديدة الغريبة. علّقتْ NM792 :

الشعراء ليس لديهم معرفة بأبسط الضروريات.

كيف ذلك؟ سألتُ؟

يعتقدون، مثلا، أنّ أكل الخضار، والحبوب، ومنتجات الألبان أهمّ من استهلاك منتجات أخرى وتحريك عجلة الاقتصاد، هكذا ببساطة.

هذا غير صحيح، قلتُ.

تناقشنا بعمق شديد وكدنا نلغي أيّ شكل من أشكال التأثير الذي يجمع بيننا. وصل الحدّ بـ NM792 إلى اتّهامي بعديمة الفائدة، وهو ما يعتقده أخي تجاهي، بطريقة ظالمة فأنا لست كذلك أبدا. أريد أن يكون لديّ شاعر، فما المشكلة؟ هناك دراسات تؤكد أن الحصول على رسّام، أو راقص، أو ممثّل، أو حتى شاعر، يساعد على مقاومة الضغط، ويخفّض من الكوليسترول، وهو ما يجعلنا مواطنين وموظفين أكثر إنتاجية وأكفاء ومركّزين.

إذن، هل هناك ماهو أحسن من هذا؟.

فكّرتُ في رَمي تلك الدارسات في وجهها غدا. طبعا، وعند وصولي

إلى البيت أردت التأكد من الأمر، عليّ أن أسأل الشاعر عن سلّم الأولويات لديه. تمشّى الشاعر في البيت بتؤدة (أعتقد أنّ الشعراء هكذا يمشون) كان نظره تائها في خط التقاطع ذاك بين السقف والجدار.

قاطعته.

هل تعتقد أنّ الخضار والفواكه على رأس الأولويات الضرورية؟

طبعا لا.

وماذا إذن؟

الحريّة.

صراحة.....

درب التبانة، بحق مامون!

في منتصف الصباح، وخلال الاستراحة بين الدروس، شاهدت أخي عاشقا لـ BB9،2. تقدّم ثلاث عشرة خطوة نحوها، وقف قربها على بعد مسافة قصيرة وخطيرة تُقدّر بسبعين سنتيمترا. قال لها شيئا ما.

هي نظرت إلى الصديقتين اللتين يرافقانها، أوّلاً إلى الّتي على يمينها ثمّ إلى الّتي على يسارها قبل أن تطلق قهقهة دافعة برأسها إلى الخلف.

على الرغم من أنّ أخي يعتبر سخيفا كبيرا، فإني لا أجزم إن كان قادرا، على ابتكار جملة يمكنها أن تأثّر في شخص مّا بشكل راديكاليّ. عندما يسمعه شخص مّا يتكلّم فإنه لا يستطيع إلاّ أن يحملق بعينيه، أن ينطق كلمة بذيئة، وفي كل الاحوال لا يمكن لردّ الفعل أن يكون بطريقة عاديّة على الإطلاق. فهو يقول دائما أشياء غبيّة وسخيفة للغاية ومستفزّة أحيانا، ولكن يكفي حلّها بالابتعاد عنه بعشر خطوات أو أكثر وبأن نتجاوزه تماما على مسافة سبعة أمتار أو ثمانية. فقط من خلال هذه المسافة يدرك بوضوح أننا غير معنيين بسماعه. أو أنّنا نريده أن يختفي، أو أن يموت بمرض مزمن. ولكن قهقهة مثل تلك لم تحدث من قبل أبدا. فالثابت هو الابتعاد المعهود عنه.

لم ينتبه إلى أنّي شاهدت كلّ الواقعة. فضولي كان كبيرا إلى درجة

أنّ قلبي بدأ يدقّ بسرعة، وبطريقة يصعب عليّ وصفها بالأرقام. كان عليّ أن أعرف، بكلّ اختصار ممكن، ماذا قال لـ BB9،2 (اسم بهيّ بفاصلة وعُشر سخيف).

عندما التقيت به في مخرج المدرسة سألته كيف كان يومه.

أنت تكسرين محفظتي. لماذا تريدين أن تعرفي؟

بلا سبب.

بلا سبب؟

بلا سبب.

أنت دائما تظهرين بأشيائك غير المفيدة. بلا سبب....

طيّب، أردت فقط أن أتأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام وأنّك مازلت الأخ الأكثر مقتا لدرب التبانة.

درب التبانة لديه إخوة؟

كانت أمّي تنتظرنا عند باب البيت. كانت غاضبة من الشاعر.

سألت أمي ماذا حصل.

ماذا حصل؟

نعم، ماذا حصل؟

قال أخي:

بحق مامون، لا تأتي من وراء هذا الشاعر إلا المشاكل. أراهن أنّه كسر شيئا مّا وهو يؤلّف بيتا أو شيئا من هذا القبيل.

قالت أمّي، لا. لم يكن ذلك.

قال أخي، ورغم ذلك، عليكِ بطرده.

ماذا؟ رددتُ.

الآن لا أستطيع أن أقول لأنّ أباكما قادم.

لم تعد هناك رطانة

منذ قليل بدأت أفهم ماذا كان الشاعر يقول ولم أجد في ذلك أيّ رطانة، بل سمعت كلاما حقيقيا. ولكن مرّ وقت طويل لأفهم تلك الأكاذيب.

مجاز.

مجاز؟

نعم، أكّد الشاعر.

آسفة، ولكن الحذاء ليس قفازا عاشقا للأيدي الخطأ. في العالم الذي نعيش فيه كلنا يسمّي ذلك كذبا ويعتبره شيئا قبيحا جدا، وقد تُسحب منّا نقاطٌ كثيرة من السيرة الأخلاقية.

وتحجّج الشاعر بأكاذيب أخرى. انتبهوا، مثلا، لهذه الحالة إذ صرّح بـ 10 كلمات، وكانت النتيجة كالتالي: الفتات الذي يطير عاليا يفضّل مناقير الطيور على أهواء الريح.

غير مفهوم بنسبة 89 % تقريبا.

سألته ماذا كانت تلك الأهواء؟ فأجاب بأنّها ذلك الشَّعر النابت في أعلى الرأس، الشعر الذي مهما مشطته يظلّ واقفا دائما وكأنّه في محكمة.

في محكمة؟

نعم، يطلب القاضي دائما من المتّهم أن يقف.

المتّهم؟

المتّهم هو الشخص الذي يجب عليه أن يقف في المحكمة.

أنا أعرف ما معنى متّهم، وأعرف معنى محكمة ولكن، ما علاقة الشَّعر بالمتّهمين؟

طيّب، أنا رأيت علاقة في ذلك.

صراحة.......

قصيدة ملقاة على الأرض أو على قَدَم مائدة

كنت حريصة على أن أكون مع أمّي في المطبخ لأعرف سبب غضبها من الشاعر. وبما أنّنا كنّا في نهاية الأسبوع فإنّ الوضع تعقّد. بقينا كلّنا في البيت لأنّنا نمرّ بحالة تقشّف أو شدّ الحزام (اعذروني على هذا المصطلح التقني) وليست هناك إمكانية لصرف النقود في الخارج، رغم رغبتنا في ذلك، وعليّ أن أعترف أنّ حاجياتنا الاستهلاكية الأساسية أخذت في التراجع. فقد تجاوزنا أكثر من ثلاثين ساعة ولم نستهلك شيئا، ولم نساهم في الدورة الاقتصادية الحرّة ولا في النموّ، ولا في الازدهار. ولكن، كما قلتُ، يستحيل فعل ذلك لأسباب موضوعية كانت الآليات الاقتصادية قد نبّهت إليها.

قضت أمي العشية تتنقّل من مكان إلى آخر، أغلب الوقت لمسح الغبار عن الأعداد المنضدة لمجلّة نقود وسعادة. ظهر أبي في مقال في العدد 383 الصادر في مايو منذ تسع سنوات، حين استشهد به خبير اقتصادي فرنسي بوصفه نموذجًا للمتصرّف الاقتصادي الصارم، بعد أن عمل لمدّة ستة أشهر في مشروع لشركة ألمانية لإعادة إنتاج أشياء قديمة وهو منتوج صناعي جاهز للتطبيق على أي منتج صناعي آخر. أو على الأقلّ هذا ما هو مكتوب في المقال، ونحن نقتبسه دائما بصرامة لنسترشد به في الحياة.

لاحظتُ أنّ الشاعر مرّر خفيةً ورقة صغيرة لأخي. تظاهر أخي

بأنّه يشاهد التلفاز وتظاهر الشاعر بأنه في حالة إلهام بقَدَم مائدة الصالون، الآن عرفتُ، هو نفسه قال لي بكلمات قليلة، ليست أكثر من خمس عشرة كلمة أو ستّ عشرة، «يمكننا أن نجد قصيدة في أيّ شيء بل يمكن أن نجدها منشورة على الأرض».

منشورة على الأرض، أيها الشاعر؟

نعم، أو مستلقية على زجاج النافذة.

هل بدأتَ بأكاذيبك؟

هزّ كتفيه وقام بحركة عريضة بذراعيه، تُعادل زاوية تسعين درجة.

إنّ القصائد في كلّ مكان وفي أغلب الأحيان تفضّل الاختفاء في الأماكن الأكثر بساطة.

مثل قَدَمِ مائدة؟

نعم.

فكّرت: ما الذي يحدث في بيتي؟ أحصيت أشياء غريبة متعدّدة. وبخصوص هذا الأمر، فقد ساعدني أبي في القيام ببعض الحسابات بمساعدة آلة حاسبة قديمة.

اقترب الشاعر منّي.

اشتكى أبي: إنّه السقوط، نحن بصدد السقوط.

سقوط؟ سأل أخي. والتفت إليّ.

أعتقد أنّ الأمر خطير. هل ذلك الشيء سيّئ؟

الإفلاس؟

لا تقولي هذه الكلمة، يا غبية؟

إفلاس، إفلاس، إفلاس، إفلاس، إفلاس، إفلاس، إفلاس، إفلاس، أعدتها ثماني مرات.

اقترب الشاعر من أبي الذي كان يقول:

سقوط، نحن بصدد السقوط.

حينها، ألقى الشاعر قصيدة لها علاقة بالإحصاء:

بين مائة شخص [....] في حالة توجّس مستمرّة | من شيء ما أو شخص ما ـــ| سبعة وسبعون.

رفع أبي رأسه، فقفز شعره من مكانه فبقي معلّقا على كتفه الأيسر، كان وجهه أحمر بسبب تركّز الدم في تلك المنطقة التي تحتوي على عدد كبير من الشعيرات الدموية.

اذهبْ حالا إلى غرفتك، صرخ أبي في وجه الشاعر.

ليست غرفة، قلت في نفسي، هي مجرّد بيت درج بمترين ونصف متر مربع.

غرفة

قصدت الشاعر لألتقي به في «الغرفة» (بدأت أفهم معنى مجاز). كان مستلقيا على السرير، شعرُه (مستحيل عَدُّه) مبعثر ومتدلٍّ على وجهه بشكلٍ يُضفي عليه مسحةً من الكآبة. ركبتاه ملتصقتان، كعباه متباعدان بأثني عشر سنتيمترا وأصابع رجليه يتلامسان. جلستُ إلى جانبه. رفع رأسه وابتسم. كانت ابتسامة مفتوحة إلى الداخل، كما كان يقول هو، بسبب فقدان سِنّ أماميّة.

تختفي الأبيات تحت السرير، يقول.

أليست أشباحًا؟

بعض الأبيات، نعم.

عاد الشاعر يبتسم. أخرج الدفتر من جيبه وبدأ يخربش شيئا ما. تقول الإحصائيات بخصوص ذلك الفعل: إمّا قصيدة أو على الأقلّ بيت شعر.

هل تريد تلميع حذائك، يا شاعر. عاد ينظر إليّ. ثم نظر إلى الحذاء. بعدها نظر إليّ من جديد. ابتسَمَ. ثم نظر إلى الحذاء. واستأنف الخربشة.

كانت فعلا قصيدة، يمكننا التأكد من ذلك لأنّه أدرك السطر الخامس.

يقول: الأشباح غبيّة جدا. لو مشينا خطوة نحوها فلن تستطيع أن تدرك أين نحن بالضبط، تجري إلى الأمام في محاولة منها لتخويفنا، ولكنها تفقد الاتجاه تماما فلا تدري أنّها مرّت بنا ولم تنتبه.

نعم، الأشباح غبية جدا. أبي غبيّ قليلا، وفي بعض الحالات يصل إلى درجة عالية من الغباء مثل أخي تماما.

يجب أن نقوم بخطوة نحوه. نعم، يجب ذلك ولكن ليس في لحظة قيامه بالحسابات. هو لا يحبّ أن يقاطعه أحدٌ. يظل عصبيا مائة في المائة في كل مرّة يحدث ذلك.

خطوة صغيرة.

نعم. ولكن ليس لحظة قيامه بالحسابات.

يظهر البحر

لا رغبةَ لي في التدخّل كثيرا في حياة هذا السخيف الذي تجمعني به روابط جينية، ولكنّي لم أستطع الحدّ من فضولي فقرّرتُ التحدّث إلى N7468،1734 بخصوص السخيف الذي تربطني به جينات وراثية، وهي إحدى زميلات BB9،2 وتحمل اسما أكثر بهاءً، فبعد الفاصلة هناك أربعة أرقام.

كان ذلك عبثا. فكلّ ما قالته لي كنت أعرفه، فأخي يصلح أن يكون حالةً للدراسة. إنّه مثير للسخرية وغير كُفْء، وبعملية حسابية بسيطة، ودون اللجوء إلى محاسب، فالنتيجة واضحة: أبله...

قدّمت لنا أمي في ساعة الوجبة الخفيفة خبزا بالزبد، حوالي ثلاثمائة غرام نشرتها بسكّين من فولاذ مقاوم للصدأ، صنع وطنيّ، برعاية وكالة دعاية (مذكور على المقبض) وماركة مواد تجميل (مذكور على الشفرة).

كنتِ غاضبة من الشاعر أمس.

تمتمَتْ بشيء ما.

هل لأنّه كتب جملة على الجدار متكوّنة من ثلاثة وعشرين حرفا؟

لا يهمّ.

كان الشاعر قد كتب فعلا على الجدار. فمنذ يومين عندما جلستُ إلى جانبه لاحظتُ كتابةً على الجدار بقلم حبر أسود فاتر، نحو ثلاثين

سنتيمترا فوق السرير.

ما ذلك، يا شاعر؟

نافذة.

تبدو جملة، أو ربّما بيتا شعريا.

إنّها نافذة تطلّ على البحر.

قرأت الجملة المتكوّنة من ثلاثة وعشرين حرفا. كانت تقول ما يلي:
كيف للبحر الكبير جدا أن تحويه نافذة صغيرة جدا؟

وعلى الرغم من أنّ أمي لم تؤكّد أنّ فسخ العقد العاطفي مع الشاعر يعود سببه إلى الجملة المكتوبة على الجدار، إلا أنّي ألححتُ:

ماما، هل تلك الجملة هي نافذة؟

هي ماذا؟

نافذة تطلّ على البحر.

هل فتح نافذة دون رخصة من البلدية؟

إنّها حالة شعرية تماما.

ماذا أصابك؟

لا شيء...

بدأ الشعر يصيبنا.

كيف ذلك؟

جلست أمي على كرسيّ المطبخ. هو مقعد من الجلد الناعم برعاية وكالة عقارات الجنوب، وبدأت تبكي. ثلاث شهقات صدرت بسرعة كبيرة، وبعضها غير محدّد، صدرتْ بتواتر سريع تلتها بخَنَف طويل، هكغغغغغغغغ، عالجته بمنديل ورقيّ أخرجته من جيب المئزر الأمامي ومسحتْ به المخاط الذي وصل إلى شفتها العليا حيث يُحدث العمر

عادةً ثلاثَ تجاعيد صغيرة قادرة على بثّ الإحباط والاكتئاب في نفسية امرأة تعتقد في كلّ مرة أنها مازالت شابة.

اقتربتُ منها. مارستُ حوالي ثلاثة عشر أو أربعة عشر غراما من القوة على ظهرها واستثمرتُ في المودة المتبادلة بيننا.

سألت. ماذا حصل؟

قالت، لا شيء، لاشيء.

هل تفضّلين لحما؟

صرخ أبي في المكتب متأسّفا على الخطأ الجسيم في توقّعات الإيرادات وعلى الحفرة الكبيرة في حسابات المصنع.

سُمع صوت لكماته وهي تضرب بشدّة على المكتب المصنوع من الخشب الرقائقي، ثلاث مرات، تلاها صمت لمدّة ثلاث دقائق لم يقطعه إلاّ: العشاء جاهز، صرخت أمّي من المطبخ وحسب ما يبدو لي كانت قوّة صوتها بين سبعين وستّة وسبعين ديسيبلاً لأنّنا لا نملك آلةً يُمكنها قياس القوّة الصوتية. جلسنا على المائدة. أبي الذي هاجر شعره إلى الكتف الأيسر، والاحتمال الأكبر هو بسبب الضربات على المكتب الخشبي، كانت ربطة عنقه قد مالت إلى اليسار وإحدى الياقات، اليمنى تحديدا، ارتفعت، وهي برعاية مكتب إعلامية.

جلس الشاعر إلى جانبي، كما هو معتاد، واضعًا إلى جانبه منديلا والدفتر وقلم الرصاص.كان أخي يستمع إلى لحن رهيب يشبه صوت آلة حاسبة قديمة عند تشغيلها. ماركة منسية.

قدّمت أمي السباغيتي مع البازيلاء وقالت: لا لحم ولا سمك، علينا بشدّ الحزام والاقتصاد في هذه الكماليات الغذائية.

علينا الشروع في خطّة لضبط الأوضاع المالية العامة، قال أبي.

بدأ الشاعر في تجسيم بيت شعريّ بالسباغيتي. فقسّم بأصابعه العجين وفصّله حتى كوّن كلمة.

قرأتُ: محار.

تفضّلي بالأكل آنستي، قال، مشيرا إلى «المحار».

لا. شكرا.

ثم شرع في تفصيل السباغيتي حتى كوّن كلمة «لحم»:

هل تفضلين لحما؟.

فقط من أجل رؤية شاعري

أخذتُ صديقاتي إلى البيت لرؤية شاعري.

كانت C76 تلبس تنّورة برعاية شركة مشهورة للتدليك. دهنتْ أظفارها بالأصفر، وشعرها كان مشدودا إلى قفاها بثلاثة سنانير بلاستيكية بُنّية. وكانت E60 تلبس سروال جينز برعاية مكتب سياحة شرقيّ. توقفتا معًا عند رؤية الشاعر وتمتمتا بينهما بشيء مّا.

أشارت E60 إلى الجملة المكتوبة على الجدار قائلة، لقد وسخ الجدار. كنت أعتقد أن الرسّامين فقط يفعلون ذلك.

ماذا تقصدين؟ سألت C 76.

مثل الرسّامين الذين يقومون بكثير من الأوساخ.

وبماذا ينفعون؟

الرسّامون؟

نعم.

لا ينفعون لشيء. غير مفيدين.

وماذا يفعل الشاعر؟

ينظم قصائد، قلتُ.

وبماذا تنفع؟

تنفع لأشياء كثيرة. هناك قصائد تصلح لرؤية البحر.

فنظرتا إليّ بعيون جاحظة جدا.

آه! سأكون مريضة

انقطعتُ عن متابعة البرامج التلفزيونية المعهودة ليلا. فالاستعراضات التلفزيونية حول الحسابات والمالية والاقتصاد لم تعد تعني لي شيئا. نظرتُ إلى الملصقات المعلّقة على جدار غرفتي والمرصّعة بكل نجوم البورصة فشعرت بنوع من الفراغ التجاريّ، أو على الأقل، العاطفيّ. هل مرضتُ؟

تكلّمت في الأمر مع الشاعر فسألني إن كان باستطاعتي الاعتقاد بوجود ترفيه وفائدة بعيدا عن الأنشطة المدرّة للأرباح.

نعم، هناك ترفيه. لا نرى فقط أرقام البورصة.

آه، نعم؟.

نعم، وأيضا نشاهد برامج مع خبراء اقتصاد، ومتصرّفين، وأصحاب بنوك، يناقشون فيها وضع البلد.هناك دعايات، ومناظرات حيث يمكن للأشخاص الترفيع كثيرا في مكاسبهم وخاصة السيارات والعقارات، إلخ.

نعم، وهل توجد أشياء دون غاية ربحيّة؟

صراحة.....

بقيت أفكّر في ذلك، فبما أنّني عوّضت ليالي الجلوس أمام التلفاز لمتابعة ارتفاع البطالة حوالي ساعة وخمس وأربعين دقيقة، بحديث مع

الشاعر أو، ببساطة، بقراءة أحد كتبه الخالية من الرعاية. لقد كان يستعمل كتبه الشعرية كمراجع اقتصادية. ويمكن أن أذهب في تأويلي إلى أبعد من ذلك.

هو يتكلّم مع كتبه وكأنّه يتكلّم مع أصدقائه. يسأل فلوبير ماذا يعتقد في هذا أو ذاك فيفتح الكتاب ويجد الجواب. وهذا يسرّني.

وفي اليوم التالي، في المدرسة، عليّ الاستعداد لمواجهة حدث استثنائي.

كم كانت جميلة تلك الجملة

كان صباحا جميلا جدا، الهواء كما يقولون يفوح دولارات. استيقظ أخي سعيدا، تمطّط مرّتين بكسل، مادّا ذراعيه على الجانبين.

ذهبنا إلى المدرسة، كان عصبيّا بطريقة غير طبيعية، استنشق بقوّة أربع مرات خلال طريقنا. وكان طول الطريق حوالي خمسمائة متر، من محطّة الحافلات إلى باب المدرسة. افترقنا كما جرت العادة. عندما كنت في اتّجاه صديقاتي التفتُّ. كان أخي واقفا في وسط البهو. مشى بخجل. أخرج من جيبه ورقة مطويّة. الورقة التي أعطاه إياها الشاعر بكل تأكيد! قرأ محتواها. أعاد حفظها. أخرجها مرة أخرى وأعاد قراءتها. تقدّم ببعض الخطوات الجديّة إلى درجة أنّني لم أستطع عدّها.

اقترب بحوالي سبعين سنتيمترا من BB9،2

قال لها شيئا.

احمرّ وجهها خجلا.

بقيتُ واقفة، لا أدري فيما أفكر. بحق مامون ناجيت نفسي، ماذا يحصل؟

رأيتها لاحقا تقترب من أخي. كنت قريبة جدّا منهما لأستطيع سماع المحادثة. طلبتْ منه BB9،2 أن يعيد عليها ما قاله لها صباحا.

تلعثم أخي مرّتين وقال الجملة.

آه، بحق مامون كم هي جميلة هذه الجملة.

كانت مفاجأةً بنسبةٍ مائة في المائة، فهذا شيء لا يمكن التنبؤ به أبدا: قالت BB9،2 إنّها أُعجبت بالجملة بدرجة كبرى على الرغم من أنّ محتواها يفتقر إلى أيّ فائدة. شعرَتْ بارتفاع سرعة دقّات قلبها بطريقة ملفتة، بنسبة 130 نبضة في الدقيقة أو ما قاربها، يعني أكثر من المعدّل العاديّ في حالة الاسترخاء.

وهذا جيّد؟ سأل أخي. قالت هي، نعم.

جيّد، كيف؟

وكأنّه مربح، قالت هي.

احمرّ وجه أخي، رمشت عيناه سبع مرات، ارتجفت رجلاه، في حين ابتعدت هي حاملة الدفاتر تحت ذراعها. وعندما دخلَتْ إلى قاعة الدرس، برعاية بنك أجنبيّ، أدارت رأسها نحو أخي وابتسمتْ.

سأكون شاعريّة

يبدو الأمر وكأنه معيار ثابت، ولكنّه يناقش كلّ يوم في البيت. كان أبي يقول إنّ أفرادا من أعراق أخرى قد سرقوا كثيرا. وكان الشاعر يقول إنّ أصحاب البنوك والأسواق المالية هم الذين سرقوا، وبكميّات من المستحيل إحصاؤُها. تلك الجملة كانت صادمة وتجاوزتْ الحدّ، فمن يستطيع أن يقول قولا كذلك، وإن كانت نيّتُه سليمةً، ولا ينتظر عواقب؟ أنا لم أسمع من قبل شيئا أكثر تجاوزًا للحدود واقترافًا للخطأ من ذلك.

أمره أبي، بصوت حادّ، بالذهاب إلى غرفته ولكنّي لاحظتُ الرعب يتسلّق وجهه. (يتسلّق وجهه؟ هل بدأت أصير شاعرية؟).

ويبقى من دون عشاء، أضاف أبي، في حين سقط شعره من جهة الأذن اليمنى على كتفه الأيسر.

تجوّل الشاعر حتى وصل مكانه تحت الدرج فجلس على السرير، كان رأسه مرفوعا حوالي خمس وأربعين درجة، وعيناه تائهتين، فمه نصف مفتوح، أقلّ من نصف سنتيمتر في الوسط.

بعد أن وضعتُ الملاعق على انطاولة لتأخذها أمي لاحقا، ذهبتُ إليه.

لسنا في وقت هزل يا شاعر. الوضع الدولي يؤثّر في أدائنا.

الزمن؟

لسنا في وقت مزاح.

الناس يرون الوقت يمرّ في حين نراه نحن يتوقّف. ثانية واحدة تعادل الأبدية.

ما أجمل هذا الكلام، يا شاعر.

شكرا.

وضع يديه على بطنه الذي بدا لي يطلق قرقرة.

ماذا حصل؟

مزاجي معكّر.

بسبب أبي؟

لا. لديّ كلمة تريد أن تخرج. عفوا، عليّ أن أكتب.

على راحتك، يا شاعر.

أمسك الدفتر وبدأ يخربش بشراسة آخذا في بعض الأحيان نفَسًا طويلا يصل إلى سبع ثوانٍ أو عَشْر. شطب الكلام. مزّق الورقة، عجنها ورماها أرضا وعاد يخربش. رفع رأسه ثلاث مرات خلال هذه العملية، واضعا ذيل قلم الرصاص في فمه بينما كان يتأمّل الخيط الرابط بين السقف والجدار. وبعد ذلك، أغلق الدفتر بكل هدوء ووضعه جانبا على السرير. ابتسم أو كما يقول الشاعر، رسم الفم بسمة بعد أن مارس قلم الرصاص الحُبَّ مع الورقة، ومن قُبلة الغرافيتي تلك وُلدتْ... من الأفضل التوقف عن هذا. هذا جنون؟

صراحة...

حجر ضد القصائد

عند عودتي من المدرسة في آخر العشية، رأيت بعض الصبية يرمون الشاعر بالحجارة حين كان يمشي في الشارع ويخربش في دفتره أشياءه الخاصة وغير المفيدة.

صرختُ فيهم، بحق مامون، وجريتُ لحمايته. أمّا هو، وعند إحساسه بوقع حجر على ضلع عائم له في الجانب الأيسر من جذعه، توقّف ناظرا إلى شدّة عنف الصبية. عيناه ترتجفان. أصابني حجر على ساقي فبدأت أصرخ وأبكي من الألم والغضب. ما هو الربح الذي سيجنيه هؤلاء الأوغاد من فعل كهذا؟ مددت يدي إلى الشاعر وجذبته لكي يجري معي في الشارع السفلي بعيدا عن أولئك الصبية قليلي القيمة.

بدأت تمطر.

أراد الشاعر أن يتوقّف فاستجبت لرغبته على الرغم من إمكانية ندمنا بعد ذلك ودفعنا لهذا القرار بنزلة برد/انفلونزا / التهاب رئوي ومصاريف صيدلية، والأسوأ من ذلك الزيادة في التأمين الصحي وما هو أشدّ سوءًا مصاريف وكالة الدفن (هذا سيجعل أبي غاضبا جراء كل هذه المصاعب التي نمرّ بها في البيت والمصنع).

كان الشاعر مغمض العينين ووجهه صوب السماء. تتساقط

القطرات على وجهه. يبدو كأنه يبكي بشدة. ربما الأمطار هي التي ألهمتني هذا الإحساس.

طلب طعام

أمر أبي أمّي بطريقة وقحة أن تعدّ لازانيا. ولاة أمر معظم أصدقائي (86%) لا يتصرفون هكذا. مثلا أب C 76 عندما يحتاج إلى لازانيا يطلبها باللباقة المطلوبة في مثل هذه المناسبات ولا يأمر. يقول هكذا: أودّ طلب لازانيا. وهي تنفّذ المطلوب، تذهب إلى المطبخ وخلال ساعة أو ساعتين تطبخ الطبق المرغوب فيه. وإذا كانت هناك مكوّنات ثمينة لا توجد في خزانة المطبخ فهي تطلب الإذن بالخروج وتمشي بعض أمتار ضرورية حتى المنطقة التجارية الأقرب وتشتري المكوّنات الناقصة. حدث ذلك أيضا في بيتنا سابقا، ولكن عندما كان هناك عجز في المكوّنات، أمّا أبي فلم يطلبها مرّة أخرى من أمّي وإنما أصدر أمر شراء. لم تظهر أمّي أيّ اعتراض على هذا الأسلوب. عادة تحني رأسها، تنظر إلى شبشبها، برعاية شركة فوانيس، تحكّ بطن ساقها اليسرى بالجزء الخلفي للشبشب، تمارس بذلك ثلاث حركات عموديّة أو أربع ثم تلتفت رأسا لتنفيذ واجباتها المنزلية والإسهام في النموّ والازدهار العائليين. ذات يوم واجهتُ أبي بهذا الوضع. غضب، هاجر شعره إلى الكتف الأيسر.

بحقّ مامون، ما هذا؟

هذا.. ماذا؟

عدم احترام الأوامر هذا.

هي مظاهرة تعبير عن غضب.

وعَلامَ ترتكز حُجَجها؟

على التجربة اليومية.

التجربة الشخصية؟ ماهي مصداقية دراسة كهذه؟ أو هل قمتِ بدراسة كافية للمسألة؟

ليس بعد، قلتُ.

اقترب الشاعر وقال إنّ لديه عصفورًا حزينًا في القلب.

أمره أبي، إلى غرفتك حالاً!

ثم التفت إليّ عندما كان يمسك بشعره المتدلّي على كتفه الأيسر ويحاول أن يجعله يهاجر إلى أذنه اليمنى، وقال:

إنّ سياسة بيت تتطلب قيادة قويّة لتمنح الثقة لكل دافعي الضرائب.

قلت في داخلي، يوما ما، سأقدّم هذه الدراسة.

مربح أم لا؟

بدأت مظاهر الكبر تظهر على أمي، نظرات وملامح مرهقة، جلد شاحب، يظهر ثقب في شبشب الرِجل اليمنى بقطر سنتيمترين فيمحي ثلاثة أحرف من كلمة مصباح لتبقى فقط «اح». واجهتها بحقيقة السلطة التي يمارسها أبي والتي بدت لي أنها تجاوزت الحدود.

أنت مازلت صغيرة ولا تعرفين كم يساوي اثنين زائد اثنين.

ولكن أبي يُعتبر ناقصا بالنسبة إلى الآخرين.

إنه مواطن صاحب ذكاء كبير ومربح.

ليس هذا ما تقوله الإحصائيات.

أيّة إحصائيات؟

إحصائيات المصنع. الناس لا يعتبرونه مربحا.

طيب، يمكن ألاّ يكون كذلك، فهو محاسب.

لا أوافق.

استطعنا شراء شاعر بفضل تضحياته الكبيرة.

وبعدها حكّتْ بطن ساقها اليسرى بأربع حركات عمودية بشبشب الرجل اليمنى المكتوب عليه «اح».

تركتها وحيدة وذهبت لأجلس مع الشاعر على سريره وأرى معه البحر.

أنت هامد، أيها الشاعر.

قبل أن أنام أقوم بحركات رياضية للبطن والمفاصل بالخيال لأسخن عضلات الخيال. لا أريد أن أحلم بألم الأعضاء.

ما معنى ألم الأعضاء؟

عندما نأكل البسكويت بإفراط ونصاب بألم في البطن، ولكن نحن يحدث لنا في الركبة.

في الركبة؟

حالة تشبه حركة التمطّط لضرب الكرة وتسجيل هدفين في آن واحد.

صراحة....

غير نافعة دون أدنى شكّ

أدركت أكثر من مرة أنّني أصبحت غير نافعة وأنّني أفكّر في الأشياء من ناحية جمالها لا غير، ولا أريد أن أعرف قيمتها النقدية أو الوظيفية. صرتُ غريبةً أكثر من اللازم كما يقول أخي.

في بعض المرّات، أبقى أنظر إلى حشرة، إلى قياس سجّاد، إلى كأس شاي مع شريحة ليمون أو، وهذا الأخطر، إلى أثر كأس شاي ظلّ على غلاف المائدة (برعاية شركة ثلاجات).

ذات يوم سألوني في المدرسة عن سبب رغبتي في شراء شاعر.

قلت إنّني أحب الشعر.

غير نافعة! صرخوا.

أنتم لا تدركون أنّي أحصّل ثقافة؟

بماذا تنفع؟

بكومة من الأشياء.

هل هذه كمية؟ عليك مشاركتنا بقليل من ذلك لنعرف قيمة الصفقة. انفعلتُ وأجبتُ بأسلوب عنيف:

الثقافة لا تستهلك، فكلّما استخدمتَها زادت أملاكُك.

ظلوا، في البداية، صامتين، ثم احمرّتْ وجوههم وانفجروا ضحكا. قائلين إنّني مجنونة غير نافعة، لا تعرف كم يساوي اثنين زائد اثنين.

عندما وصلت إلى البيت جريت نحو الغرفة. كان خدّاي مليئين بالدموع وكنت حزينة جدا وفي نفس الوقت غاضبة جدّا إلى درجة أنّي لم أعرف الكمية الحقيقية للدموع التي ذرفتها وتركتها تهرب من صندوق العبرات.

عندما رآني الشاعر على تلك الحالة من الإفلاس، اقترب، دقّ باب الغرفة الذي كان شبه مفتوح بنسبة ثلاثين سنتيمترا وسأل إن كان يستطيع أن يدخل. لم أجب لأنّني كنت أبكي بشكل متقطّع. جلس بجانبي على السرير على بعد اثنين وعشرين سنتيمترا وظلّ صامتا.

أنا لست إنسانة غير نافعة، قلتُ. وهو واصل صمته.

لستُ كذلك؟

واصل صمته.

الذنب ذنبكَ أنتَ الذي تركتني حائرة، دون تنظيم، دون أهداف محدّدة. واصل صمته.

اتّهموني في المدرسة بنطق جمل غريبة. لم أشعر أبدا بمثل ذلك الإذلال. قام وذهب إلى غرفته، برأس منحن، وظهر مقوّس، وشعره متدلّ على عينيه وملابسه التافهة دون أيّة رعاية.

الشعر يضرّنا كثيرا

في اليوم التالي، وفي اليوم الذي تلاه وما بعده أو بالاحرى في كلّ يوم يصرخ أبي في وجه الشاعر. ينتهي النقاش بأمر من أبي: اذهبْ إلى غرفتك ولا تغادرْها إلاّ بإذن منّي!

سألتُ أمي عن السبب.

تعوّد الشاعر أن يمشي ويقول قصائد.

وهذا ما يفعله الشعراء.

أبوك في حاجة إلى التركيز. التجارة لا تسير على ما يرام.

لا أدري كيف خرجت تلك الفكرة السخيفة. بحقّ مامون من أين جاءتك تلك الفكرة السخيفة؟

تردّدتُ.

الشعر يضرّنا كثيرا، كثيرا. فقد حصل نوع من التوتّر.

نعم. يوجد ولكن ليس فقط تأثيره في الوضع الاقتصادي. صرخ أبي من الصالون قائلا شيئا ما. ذهبت أمي لترى ماذا حصل وعادت دامعة العينين.وأغلقتْ باب الحمام على نفسها.

كان يوما حزينا بنسبة عالية جدّا. أعلن أبي أنّ المصنع تكبّد خسائر كبيرة في الإيرادات وأنّه سيخسر داعمين بما في ذلك داعمو مكتبه. تراجعت الأرباح كثيرا. صرّح أبي:

نحن ندخل فترة ركود اقتصادي وأخشى أن نضطرّ إلى التقليل كثيرا من المصاريف بطريقة لم نعهدها من قبل إطلاقا. سألتُ أمي بخجل عن التدابير المقرّرة.

فوق كل شيء، الصرامة في الحسابات ولكن أخشى أن نضطرّ لتسريح العديد من الموظفين في المصنع، من الإطارات وغيرهم، وانتداب متربّصين لتعلّم المهنة، وأن نتفاوض على تسريحهم دون أية تعويضات ودون شك، إرجاع الشاعر. دمعتْ عيناي حوالي مليّلترين.

مُزيل العرق تحت الإبطين

تحدّثتُ مع أخي. لا يمكننا أن نخسر الشاعر ولا الشعر ولا تلك النافذة المطلّة على البحر؟

أيّة نافذة؟

تلك التي فوق سرير الشاعر. وضع أخي مُزيل العرق تحت إبطيه. مشط شعره.

هل سمعتَ ما قلت لك؟

بخصوص النافذة؟

الشاعر.

ماذا حلّ به؟

لا يمكننا أن نترك أبانا يعيده.

لا تكسري محفظتي. عندي أشياء أخرى أهمّ أفكّر فيها.

ولكنّك حقّقتَ أرباحا من قصائد الشاعر.

لا أدري عن أيّ شيء تتحدثين.

رشّ عطرا على عنقه، ثلاث بخّات.

رأيتك تقرأ الورقة التي أعطاك إياها الشاعر. قرأتَ على BB9،2 بعض الأبيات وهي احمرّتْ خجلا ودقات قلبها فاقت المائة والخمسين نبضة في الدقيقة. استدار أخي. ربت على رأسي قليلا وقام بخطوتين

نحو الحمام وتركني أتكلّم وحيدة عن منافع الشعر، وعن احتمالات أرباحه وأصرخ: هذا ظلم!

في النهاية، لا شيء ممّا أقوله في هذه الفترة له معنى ولا في غيرها من المرّات، ومنها ما حدث خلال الدروس ذاتها إذ كنت أقوم بتشبيهات، بجناس، بقواف، وأقول شعرا بصوت عال وكان ذلك مُحرجا.

لم ألتق بالشاعر في تلك الليلة - لم أستطع مواجهته - لأستطيع النوم في سريري وأبكي بشدّة. لم أقم بأيّ تقدير لكميّة الدموع. لم أجد الحاجة إلى فعل ذلك لأخرج من حالة الحزن واليأس.

وَضَعنا الشاعر في السيارة

وضعنا الشاعر في السيارة في الأسبوع الموالي، أمّا هو فلم يكن مستوعبا ما حصل، يبدو أنه لم يفهم ما يحدث. قطعنا طريقا ثانويّة، M372 ومسافة سبعة كيلومترات. استهلكنا اثنين من اليوروهات بنزينًا. وقفنا تحت شجرة، في حديقة، وأنزلنا الشاعر من السيارة وانطلقنا. من مرآة الرؤية الخلفية للسيارة، ومن بين حوالي صفر فاصل خمسة مليّلترات من الدموع، رأيته واقفا ينظر إلينا. حكّ رأسه وأخرجَ الدفتر وخربش شيئا ما. وبعد حوالي أربعين ثانية أو أكثر بقليل لم أعد أراه.

لا أستطيع الأكل

لم أستطع الأكل ولو ملعقة واحدة. حتى لو أردت فالطعام في البيت قلّ كثيرا. ولحسن الحظ أنه غير أساسيّ. بدأت أكتب أبياتا على الجدار. كتبت مشهد الحديقة وكتبت كلمة أقحوان في ذيل قلم الرصاص، نعم فهو يحتاج إلى أن يزهر. أيضا بكيت كثيرا واقتلعت كثيرا من علامات الرعاية لأثاث غرفتي.

دقّت أمّي الباب فتوقّفتُ عن البكاء. وبعد دقيقتيْ صمت من جهتي ومن جهتها. أدير مقبض الباب ودخلَتْ ببطء. جلست بجانبي على السرير وداعبت شعري.

أكاد أقول إنّك سمنتِ ثلاثة كيلوغرامات زيادة.

وأنت صرتِ عجوزا ببشرة مهترئة وتنتعلين شبشبا لا أحد يرعاه.

ضحكَتْ.

التجاعيد هي ندوب العواطف التي تجتاحنا في الحياة. رفعتُ قليلا جسدي ونظرت إليها. أمّي قالت بيتا شعريا؟ بحقّ مامون، ماالذي حصل لها؟

كان الشاعر هو الذي قال لي ذلك.

آه.

قال لي أبياتا كثيرة كانت تجعلني أغضب. في البداية لم أعرف

كيف أتعامل مع ذلك.

آه.

لا أعرف السبب، ولكن ذلك دفعني لإعادة التفكير في مكانتي في سوق الحياة، ماهي أرباحي، ماهي ديوني، ورأيت أنّ عليّ تغيير شيء ما. في يوم من الأيام، وأعرف أنّك ستضحكين منّي، كنت أنظّف البيت حتى نظرت إلى غرفة الشاعر، إلى ذلك الذي كتبه على الجدار وهل تعرفين ماذا رأيت؟

البحر؟

لا تكوني بلهاء! لا. في يوم ما عليّ تنظيف ذلك وربما يكون أهمّ ما أفعله في حياتي. لا أحد يعطيني قروضا أكثر من هذا. تنظيف، طهي، في النهاية هي طريقة للمساهمة في الديناميكية الاجتماعية، لكن ذلك أعطاني....كيف نقول ذلك؟

فراغ؟

هذا بالضبط.

ظلّت أمي بعض الثواني تنظر إليّ. كأنكِ الشاعر يتكلّم. فراغ! هذا هو بالضبط.

اثنان

استيقظتُ معكّرة المزاج. كنت فعلا في حاجة ماسة إلى استعارة أو على الأقل تشبيه.

تخيّلت أنّني جالسة على المائدة وأنّ الشاعر مازال معنا ويقول لي:

من دون استعارات ليس من الضروريّ الكلام. أنا أستطيع أن أقول إنّ النافذة هي النافذة، ولكن كل الناس يعرفون ذلك. بواسطة الشعر أستطيع القول إنّ النافذة هي قطعة من بحر أو قبّرة تطير.

أكاذيب.

في أغلب الأحيان هي الحقائق الوحيدة.

عليك أن تقرّ يا شاعر بأنّها أكاذيب.

شاعري أخذ نفسا طويلاً:

النافذه هي النافذة، ولكن النافذة عصفور يطير هي حقيقة أكثر عمقا، أبعد من الزجاج، شيء أبعد من تعريف المعجم ولكن، جزء منها يمكن كتابته وإن للحظة عابرة. النافذة أكثر من شيء و....

صراحة....

عندما كنت أشرب عصيرا من ثلاث برتقالات متقلصة، من دون سكّر، نظرت إلى النافذة في ذات اللحظة التي مرّتْ فيها قبّرة من جهة إلى أخرى. فابتسمتُ.

ماذا يولد من الفراغ

تطلقتْ أمي من أبي، فقد صارت لها أفكارٌ أعلى من طبخ السباغيتي بالبولينيزا والبازيلاء لِتجني في المقابل مليّغرامين من اللعاب في شكل قبلة أو كلمات «مرهقة».

قال أبي ذات ليلة (أسعدُ حين أكون غامضة مع التواريخ، تعلّمتُ هذا بفضل الشعر) إن البيت بارد، بدرجتين مائويتين أقلّ ممّا يحتاجه الكائن البشري ليحسّ بالراحة. أمسكتْ أمي بـ (1) جرّة وألقتها على رأس أبي الذي أطلق (1) صيحة فزع. أمسكت أمي كرسيا من خشب الصنوبر بوزن أربع كيلوغرامات ومائتين وأربعين غراما (4240غ) ووضعته على رأسها، وضربت بأرجله فانوس سقف، من النحاس، فهشّمت(3) مصابيح وكسرت واحدا(1). كلّها ذات أربعين واط، وألطقته على أبي الذي كان يجلس القرفصاء ماسكا بواحد(1) وعلامات الإرهاب القاتل بادية على وجهه وأسنانه (اثنتان وثلاثون طبيعية و اثنتان صناعيتان) تصطك، الشعر تبعثر، وكذلك الشعر الذي يغطي مكان الصلع (ليس هذا ما يفعله كل الشعر) المتدلّي على الكتف الأيسر ومُني بهزيمة. رفع أبي ذراعيه في اللحظة التي كان فيها الكرسي يطير نحوه. شِعْر: الكرسي لم يصبه ولكن فكرة إلقائه عليه ظلّت بلا ريب مرسومةً في وجه أبي.

صرخت أمّي بكلمتين شعرت بأنّهما شاعريتان للغاية: «لقد مللت».

أعتقد أنّ ذلك هو نفسه حين نقول:

of the light rage, rage against the dying

نعم، نعم كان هذا. شِعرا!

كانت أمي جديّة جدا، لمست شعرها، سحبت فستانها ـ كان مرتفعا حوالي ثلاثة عشر سنتيمترا أو أربعة عشر بشكل يُتيح رؤية تلك المنطقة المعتمة من اللباس الضيق ـ وغادرت الصالون. جلبتْ حقيبة.

لماذا؟ سأل أبي ناظرا إلى الحقيبة من الجلد البنّيّ التي تبدو وكأنها جثّة حيوان ميت (أعشق التشبيه!).

لتضع فيها ملابسك الداخلية الـ 22، كريم ما بعد الحلاقة، فرشاة أسنان، أربع بذلات، 12 ربطة عنق، 16 زوج جوارب وتغادر البيت حالا.

وهذا ما حصل بعد ساعة. لن أنسى أبدا وجه أبي الحزين، وذلك الرعب البادي على ملامحه وشعره المتدلّي على كتفه الأيسر. ألقى نظرة قبل أن يخرج.

قال إنّ أمي ستندم. وأمّي لم تقل شيئا. عندما أغلق الباب سألتني ماذا أريد للعشاء.

كوسا محشية، قلتُ. فأجابتْ وكأنّها تقول شعرا:

سأعلّمك كيف تطبخين، أنا لست طباخة أحد.

تغيير حياة

تغيّرت حياتنا كثيرا وحياتي أيضا.

استطاع أبي أن ينقذ تجارته من الإفلاس بفضل انقلاب عبقريّ صار بعد ذلك مرجعا يدرّس في مجال المحاسبة. من أين جاءته تلك الفكرة. سألوه وهو أجاب:

من الانضباط، من الساعات التي قضيتها في الحسابات، حساب كل الخطط الاقتصادية الممكنة، الانتباه للتغيّرات العالمية دون نسيان المشاكل الداخلية، قراءة دراسات حول هذه المواضيع بالذّات. ولكن لم يكن ذلك أبدا هو السبب بل مجرد بيت شعريّ حضر في ذاكرته وحلّ تلك الأزمة. من أين جاءت فكرة إنقاذ المصنع؟ سألته ذات عشية عندما كنا نتناول معا وجبة خفيفة. أنا أكلت كعكة، برعاية شركة لتصدير البقول، وهو شرب قارورة ماء برعاية ماركة نبيذ. اكتفى بتحريك كتفيه وقال:

لا أدري، ولكن عليّ أن أكلّف أحدا بدراسة الأمر.

ماهي بالضبط التدابير التي اتّخذتها؟

وضعت تدفئة في المصنع في الشتاء.

كان هذا؟

نعم.

وكيف جاءتك الفكرة؟.

كيف جاءت الفكرة؟.

هي نتاج تراكم أفكار عديدة.

طبقتها مع العمال لتجني أرباحا؟ تبدو فكرة غريبة كثيرا.

أعترفُ أنه يصعب شرح ذلك نوعا ما. عليّ تكليف أحد بدراسة الأمر.

فتّشتُ مكتبه بحثا عن آثار تفسّر تلك الطريقة المبتكرة في حلّ مشكلة اقتصادية جدّا. وجدتُ في أحد جيوب أبي، المليئة بالحسابات والأرقام، كتابة بقلم رصاص على منديل ورقيّ: القبلة هي الأنجع لحرارة الجسم. كان ذلك. نعم، أنا متأكّدة. قال الشاعر هذا البيت لأبي، وربّما كتبه هو بنفسه، وفجأة ظهرت الفكرة فتفاعل الاقتصاد معها إيجابا. واليوم، في كل أنحاء البلد هناك متصرفون اقتصاديون يستعملون التقنية نفسها: إذا كان العمّال يعملون تحت درجة حرارة لطيفة ومناسبة فإنّهم ينتجون أكثر. وهاهم الآن يستعملون التدفئة في كلّ مكان. كلّ الدراسات تجمع على أنّ الانتاجية تغطّي كثيرا تكاليف الاستثمار في التدفئة وما يتبعها من استهلاك يوميّ للطاقة. وهناك أيضا دراسات أخرى، كانت متّهمة من قبل العديد من المختصين، باستعمال حجج غير نافعة، بيّنتْ أنّ استقرار العامل، وسعادته في العمل، لهما تأثير مباشر في الإنتاج والمنافسة إلى درجة أن أحدهم زعم أنّ الحدّ من عدد ساعات العمل يمكن أن يكون سببا في ارتفاع الإنتاج وتوفير ربحا أكبر لرجال الأعمال.

يعتبر أبي حاليا من أكثر الأشخاص الرابحين في البلد.

لا يمكن ترك الشعر أبدا
لا في حديقة ولا في الحياة

لم أهجر أبدا ذلك الشاعر، مازلت أزوره في الحديقة. لا أعرف بالضبط كم عدد الأشخاص الذين مازالوا يزورون شعراءهم المهجورين هم أيضا، ولكن لو بحثنا جيدا فسنجد كثيرا من الحدائق ملأى بهم في داخلنا والخارج. وشاعري الذي اشتريته عندما كان عمري ثلاثة عشر عاما أو أربعة عشر مازلت أزوره إلى اليوم. نجلس معا ونقول أشياء غير نافعة وبعضها قد يصلح ليكوّن قصائد. هو ينظر إليّ والدموع في عينه (انقطعتُ عن إحصاء تلك الأشياء) وأنا أحتفظ باستعارة في الحلق، أعانقه فنبقى سعيدين لمدّة ثوان، أو بالأحرى، لمدّة أبديّة.

قال لي إنّ الشعر يغيّر العالم ويبرز الحقيقة مكتوبة بغموض الدقة المطلق. لم أقرأ أبدا ولم يطر الشعر من الصفحة المكتوب عليها. الشعر إصبع مغروس في الواقع والشاعر كمن يخرج من الحمّام ويمرر يده على المرآة المكدّرة ليكتشف وجهه.

كان هذا ما يقوله هو. وكنتُ أمسح المرايا على أمل أن أشعر بذلك الإحساس، أسعى لدرء سديم الحياة مثلما طلب الشاعر أن نفعل، نمرر اليد على الواقع لكي نرى ابتسامة. أعرف أنه عمل مرهق فهناك كثير من البخار يجعل الحياة حادّة قليلا وغير واضحة ولكنّني سأظلّ أحاول.

يقول الشاعر إنّ أبيات الشعر تحرّر الأشياء. وإنّنا حين ندرك شاعرية الحَجَر فإننا نحرّره من «تحجّره». ننقذ كلّ شيء بالجمال. ننقذ كلّ شيء بالشعر. ننظر إلى جذع ميّت فنبعث فيه الحياة. هو فقط نسي ماذا كان. علينا تحرير الأشياء وهذا عمل كبير. أعرف أنّ أشياء كثيرة في حياتي تغيّرت بفضله.

لذلك، لن أتخلى أبدا عن الجلوس إلى جانبه باستعارات في الحلق لنتبادل أشياء غير نافعة وقبل النوم أكرّر الصلاة التي تعلّمتها مع الشاعر:

عليّ أن أقطع أميالا لأنام

[ما يشبه الخاتمة]

قال غورينغ: «عندما أسمع كلمة ثقافة، أرى حافظة مسدس». هكذا ينظر العديد إلى الثقافة. وهذا ليس سيئا، بل علامة مهمّة لإبراز قدرتها على التهديد. فيمكن سحب الأسلحة. فإن لم يكن للفنّ وللثقافة أهميّة فلا أحد يُقبل على حرق مكتبة الإسكندرية (أكثر من مرّة)، أو على تدمير بوذا باميان وآثار تدمر. وإن لم تكن الثقافة مهمّة حقّا فإن غورينغ ما كان ليخرجها من حافظة المسدّس.

العبرة من هذا تكمن في الإشارة إلى أن تحسين ظروف العمل يهدف إلى زيادة الإنتاج فقط، وهذا أفضل من لاشيء، ولكن ذلك يظلّ أبعد عن القيمة الحقيقة لما يُعَدّ غير نافع: «تساءل أيضا جورج باطاي عن حدود النافع، وعن أهمية تخيّل اقتصاد قريب من حجم اللانفعي. وعلى العكس من كينز، فإن الفيلسوف الفرنسي لم يحلم بالأهداف النفعيّة النبيلة المزعومة لأن «الرأسمالية لا علاقة لها بالرغبة في تحسين الوضع البشري». فمن خلال النظرة الأولى فقط يظهر لنا أن «هدفها تحسين مستوى المعيشة» ولكن ذلك يعكس «منظورا مخادعا» فحقيقة «الإنتاج الصناعيّ ترفع من المستوى المتوسط للمعيشة دون تخفيف التفاوت بين الطبقات، وفي نهاية المطاف، وصدفة، يتمّ تقليل بعض مظاهر الظلم الاجتماعي» (ORDINE, NUCCIO، La utilidad de lo inútil).

الخطأ قريب من اللانفعية وكلاهما له دور فعال في الإبداع. ولا

ضرورة للتنويه بهذه النقطة التي سبق ودُرست جيّدا، ولكن أودّ التأكيد على أنّ الأشياء الأهمّ في الحياة ليست نفعيّة بالضرورة: فنحن نحتقر من يقوم بحركة من أجل الربح، أو فائدة، وليس الحركة في حدّ ذاتها، بسبب صداقة أو حبّ. ماذا سيكون شعورنا لو أنّ صديقا يقول لنا إنّه يتحدّث معنا فقط لأنّهم دفعوا له من أجل ذلك؟ أو أنّ أمّا تعترف لابنها أنّها ربّته وعلّمته لا شيء إلا ليعتني بها في شيخوختها؟ ففي الأشياء غير النافعة نجد الإيثار وهو ما يعتبره الكائن البشري أكثر نُبلا.

إنّ غياب النفعية في العمل الفنّيّ لا يحجب عنه البراغماتية، فالمبدع قد لا يكون في نيّته ربح نقود من وراء عمل فنّيّ (الفنّ له عادة غاية لذاته) ولكنّه قد يكون منتوجا تجاريا ناجحا، المبدع يمكن ألا تكون لديه رغبة في إثبات نِسب هندسية للطبيعة، ولكن هذا لا يعني أنّ رياضيا لا يمكنه اكتشافها هناك. هكذا مثلما لم تكن لكلود برنار رغبة في اكتشاف دور الكلوغوز في الكبد ولكن عند تعليقه عليه اكتشفه. أقتبس هنا سيمون لايس:

«إن كلود برنار الذي يعود له الفضل الكبير، من خلال بحوثه، في تطوير الطبّ الحديث، دخل ذات يوم إلى قاعة حيث كان سيحاضر فلاحظ شيئا غريبا. هناك صوان عديدة موضوعة على طاولة فيها أعضاء بشرية مختلفة، ولكن في بعضها فقط تجمعت كمية كبيرة من الذباب. إنّ ذهنا عاديا، من دون أيّة طاقة شعرية، ربّما سيحتجّ على غياب السلامة الصحية في القاعة أو ربّما يأمر أعوان النظافة بغلق النوافذ. ولكن، كلود برنار لم يكن له ذهنٌ عاديّ: فقد لاحظ أنّ الذباب يزداد تجمّعا في الصواني التي توجد فيها أكباد ـــ ففكّر: ربّما يكون سكّر هناك. وهكذا اكتشف دور الكلوغوز في الكبد ـــ الذي

أصبح اكتشافا حاسما في علاج السكّري.

«لم أجد هذه الحادثة في كتاب تاريخ العلوم، ولكن في يوميات أكبر شاعر فرنسي حداثي وهو بول كلوديل، الذي علّق قائلا: «هذه العملية الذهنية هي نفسها الخاصة بالشعر... فالماهية هي نفسها. وهذا يثبت أنّ منبع التفكير العلميّ ليس العقل وحده وإنما الثابت أن للخيال شراكة أساسية في تنميته»

لاحظوا أنّه عندما أشير إلى «الشعر» أستعمل الكلمة بمعناها الأشدّ عمقا. صامويل جونسون في معجمه العظيم قدّم ثلاثة تعريفات لكلمة «شاعر» وهي في ترتيب تنازلي حسب الأهمية: الأول، «شخص يبتكر»؛ الثاني، «كاتب خيال»؛ وأخيرا «كاتب قصائد».

«تُدرَكُ الحقيقة عبر قفز خياليّ. وهذا ينطبق على العلم كما ينطبق على الفلسفة».

(SIMON, LEYS, The Hall of Uselessnes: Collected Essays)

وهناك أيضا حالة أخرى أقدم في الزمن:

«ذات مرة، وعندما أنكروا قيمة طاليس بسبب ضعف فلسفته ولا جدواها، إذ حدث مرة أن توقّع، وبفضل معرفته بعلم الفلك، أنّه سيكون موسم جني زيتون رائع. وكان ذلك التوقّع في فصل الشتاء فاستثمر المال القليل الذي كان يملكه في معاصر ميلتوس وخيوس، فاستأجرها وقت لم تكن هناك منافسة تذكر. ولما حان فصل جني الزيتون كان هناك طلب كبير على المعاصر فاستغلّ طاليس الفرصة وأتاحها بالأسعار التي أراد، حاصلا على ربح هائل وهكذا أثبت سهولة أن يصبح فيلسوف غنيا، إن رغب في ذلك، ولكنه نبّه: ليس هذا ما يحرّكنا نحن الفلاسفة.»

(ARISTÓTELES, Política, I, 11,12a)

يقال في بعض الأحيان إنّ الخيال هو هروب مزعوم من الواقع (وكما قال إليوت، الإنسانية لا تتحمل كثيرا من الواقع) كما لو أنّه لم يصل إلينا أو أنّه آلمنا ولذلك نحتاج إلى قليل من الخيال، كحاجتنا إلى المخدّرات والترفيه. إذ يمكننا أن نكون نفعيين أكثر ونكتشف في الخيال نفعية أكبر غابت عن عالم النفس الذي يحدثنا عن الفظائع والمظالم.

الخيال ليس هروبا من القبح، ومن الرعب، ومن المظالم الاجتماعية، وإنّما، هو بالضبط تصميم لبناء بديل، هندسة فرضية لمجتمع أكثر انسجاما مع انتظاراتنا الإنسانية والأخلاقية.

«ليس في كل يوم ينتظم العالم في قصيدة»، قال والاص ستيفنس، ولكننا نحاول في كل يوم أن نجعل من بعض القصائد عالما. وعلى الرغم من كل جهود الردع، فإن التراجع عن فعل ذلك ليس خيارا بشريا بالمرّة.

الخيال والثقافة يبنيان كل ما نحن عليه. لم نولد بفراء وأسنان ومخالب. وإنّما صنعنا ملابس وأدوات كانت دائما نتاج الخيال والثقافة. الحقيقة تنقذنا لأسباب واضحة ولكن الخيال أيضا. يمكن أن نُنبّه إلى أنّ هناك نمرًا يقترب منّا، فمن المهم قول الحقيقة، الملاحظة، ولكن لندافع عن أنفسنا نحتاج، وقبل أن يقترب منّا الحيوان، إلى تخيّل إمكانية نجاتنا. حرفيا، الخيال ينقذنا. فلأننا تخيّلنا، استطعنا أن ندرك ماذا علينا فعله، واستطعنا امتلاك الأدوات أو الخيارات الضرورية لردّ الفعل. فالحيوانات تولد مع الحقيقة، بحقيقة صلبة ممّا يقلّل لديها الحاجة إلى التعلّم؛ نحن نولد بحقيقة أقلّ ولكن بإمكانيات، وبأسلحة وليدة الخيال: نحن نبتكر. فشوكة أو كمّاشة لهما وظيفة واضحة ومن هذه الناحية تفيدان أكثر من بيت

شعر ولكن، الشوكة أو الكماشة، كانتا نتيجة لابتكار، ولتحقيق ذلك كان لا بدّ من تخيّلهما وابتكارهما. فعندما ننظر حولنا ونرى كَراسيَ، طاولات، قمصانًا، فرشاتات، ملاعق، فوانيس، أقلامًا، كُتبًا، فكل ما نراه ليست أشياء ولدت معنا ولكنّها ولدت من الخيال، من الأفكار. فالعالم الذي يحيط بنا هو نتاج الثقافة.

المجتمع يكون أفضل إن نحن تخيّلنا أفضل.

لدينا ذلك الذي سمّاه جون لوك بالكمال، تلك الخاصية الغريبة التي تسمح لنا بالتطوّر حتى نحقق إنسانية مثالية، مُفكَّرًا فيها، مُتخيَّلة. فمستقبلنا سيكون دائما خيالا، شيئا لم يوجد بعد، تحويل الطاقة إلى فعل.

يقول لنا هولدرين لأيّ شيء يصلح الشاعر: «كُلّ ما يبقى يؤسسه الشعراء.»

يقول لنا الفيلسوف وعالم الرياضيات الإنكليزي، أ.ن. وايتهاد، «على العلم أن يتعلّم من الشعر؛ فعندما يشيد شاعر بجمال السماء والأرض فهو لا يعبّر بخياله عن تصوّر ساذج للعالم ولكن عن أحداث محدّدة من الخبرة في «تطهير التحليل العلمي».

(SABATO, ERNESTO, Uno y el Universo)

ولنرَ الآن المسألة بالأرقام، فحسب مقال منشور في صحيفة نوقوسيوش، بتاريخ 28 مارس 2013:

«ما قيمة يورو واحد يتمّ استثماره في الثقافة؟ الجدل أبعد من أن يكون جديدا. أما في البرتغال فإنّ تلك الدراسة التي تعدّ الأكبر حول هذا الأثر، والتي أعدّتْ في سنة 1988 لفائدة رئيس الحكومة، كافاكو سيلفا، من طرف فكتور غاشبار ولويش مورايش صارمنتو. وكما ذكرت صحيفة نوقوسيوش هذا الشهر، فإنّ وزراء المالية الحالية

وكاتب الدولة للميزانية استنتجوا أنّ مصاريف البرتغاليين في الثقافة تمثّل 3% من الدخل القوميّ العامّ. ونفس الدراسة تقول إنّ النسبة في صعود لتصل إلى 5% من الدخل الوطني ويمكنها تجاوز وتيرة نموّ المصاريف العامّة للأسر. أو بالأحرى، على الأقل منذ 25 سنة كان المسؤولون السياسيون قد أدركوا قيمة هذا القطاع الاقتصادية. ومنذ مدّة أصبحنا نعرف أكثر. في 2010، نشر أوغشتو ماتيوش، وهو وزير اقتصاد سابق، تقريرا يشير إلى أنّ «القطاع الثقافي والإبداعي حقّق في سنة 2006 قيمة إضافية خامة تقدر بـ 3691 مليون يورو، وشغل حوالي 127 ألف شخص وهذا يعني أنّه كان سببا في توفير 2،6% من فرص العمل، و2،7% من حجم الثروة في البرتغال». في نفس السنة فإنّ صناعة النسيج والملابس حقّقت 1،9% من الدخل البرتغاليّ. أما الموادّ الغذائية والمشروبات فحقّقت «فقط» 2،2%. وبين 2000 و2006 كان التشغيل العام قد نما بنسبة 0،4%، في حين كانت النسبة في القطاع المرتبط بالثقافة بفارق بلغ 4،5%. وبعد مرور خمس سنوات، أصدر المركز الوطني للإحصاء دراسة تكشف أن العائلات البرتغالية استهلكت في سنة 2011 معدّل 1073 يورو في «الترفيه، التسلية والثقافة»، وهو ما يعادل 5،3% من المصاريف الكلية لأرباب الأسر.

لا يمكن القول إنّ الحكومات المتعاقبة كانت حساسة لهذه التقييمات. فالحكومة البرتغالية تصرف قليلا على الثقافة وتوفّر لها إمكانيات أقلّ أكثر فأكثر منذ 2009. فالميزانية المخصّصة للبرامج الثقافية تعادل 0،1% من الدخل العام وهو معدّل أقل بكثير من المعدّل المتوسّط في منطقة اليورو. أمّا الأسباب فليست مرتبطة فقط بغياب الإرادة السياسية. فبرامج التقشّف والبرنامج الذي حدّدته الترويكا بدأ يؤثّر عبر قطع ميزانيات أثّرتْ في جميع مجالات القطاع. فمنذ

أربع سنوات وفّرت الحكومة 0.4% للثقافة، وهو رقم آخذ في الارتفاع منذ 2000.»

ونقرأ أيضا في الصحيفة نفسها:

«قطاع الثقافة يعادل 2% من العمل العام في البرتغال وحوالي 1.7% من القيمة الإضافية الخامة ويساهم بـ 2.7 ألف مليون يورو في السنة متجاوزا قطاعات كالفلاحة والصناعات الغذائية. الأرقام نشرت هذا الخميس 27 أغسطس، في التقرير الأول حول حسابات الثقافة، ونشره المعهد الوطني للإحصاء.

[...]

درس التقرير نشاطات حوالي 66 ألف وحدة، وعمل على الإجابة عن أسئلة العديد من الوحدات، بما في ذلك كتابة الدولة للثقافة، ممثلة في كاتبها جورج باريتو شافيار، في تقديم كونتا ساتيليت، لإنشاء وثيقة تقييمية للحجم الاقتصادي للقطاع.»

أو بالأحرى، حتى ولو تغاضينا عن أشياء سخيفة مثل السعادة والنموّ الشخصيّ، وركّزنا فقط على الأرقام، فإنّ غياب الاستثمار في الثقافة يُعدّ جهلاً مُدقعًا.

وقبل أن ننام يجب علينا أن نكرّر الصلاة:

عليّ أن أقطع أميالاً قبل أن أنام

وعلينا ألاّ نترك الشعراء في الحدائق

احتوى هذا الكتاب على أبيات (مذكورة أو مستوحاة) من بول سيلان، والت ويتمان، رامون غوميز دي لا سيرا، هنري ميشو، ييتس، سزيمبروسكا، بوكوفسكي، والاص ستيفنس، هربرتو هيلدر، ت.س. إليوت، ديلان توماس، تيريزا دا أفيلا، انجبورك باشمان، روبرت فورست. وهناك غيرهم كثير، وإن لم يشاركوا مباشرة في هذه الرواية القصيرة فهم يمثّلون أعمدة بناء لشخصي. آسف لأنني لا أستطيع أن أذكرهم جميعا. ولكن، إن انتبهنا، يمكن أن نتفاجأ بهم يتطلعون إلينا بين كلمات هذا الكتاب.

أفونسو كروش

هيّا نشترِ شاعرًا

كيف نقدّم، أدبيًا، مجتمعا محاصرا داخل فضاء ماليّ فيه تعلو القيم المادية على كل شيء لتصبح جوهر العلاقات الإنسانية؟

سؤالٌ حارقٌ يجيب عنه الروائي البرتغالي أفونسو كروش باقتراح طريف يتمثّل في شراء شعراء مثلما تُشتَرَى أيّة بضاعة أخرى من المحلات التجاريّة. فقد طلبت طفلة مراهقة عمرها ١٢ سنة من والديها، شراء شاعر أسوة بالعائلات الأخرى التي تجد في الحيوانات (قططًا وكلابًا...) ألفةً في البيوت، أوّلاً لأنه لا يكلف كثيّرا من الناحية المالية، وثانيا لا يترك أوساخا مثل الرسّامين والنحّاتين.

بهذه الفكرة التي تبدو لنا ساخرةً وغريبةً يعرّي الكاتب مجتمعًا بأكمله، مجتمعًا يقيس الناس بالأرقام والموازين، وتحدّد العلاقات الإنسانية فيه بدرجة نفعها، وكل ما خرج عن ذلك النظام فهو باطل.

هل هناك مكان للشعراء في مجتمع كهذا؟ هل انتهى زمن الشعر وآن الأوان لكي نشيّع القصيدة إلى مثواها الأخير؟ أم أنّ القصيدة هي حصن الإنسان الأخير للحفاظ على إنسانيّته واستعادة ما هُجّر منه تحت أسماء كثيرة: الحداثة، التقدّم، النجاعة، الربح...؟

ذلك ما تتكفّل بالإجابة عنه هذه الرواية.

ISBN: 978-9938-833-54-6
9 789938 833546
مسكلياني